عالم المؤتمر

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

WWW.ATTAWEEL.COM

المجلد السابع عشر
العدد الاول
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

أسد الدين شيركوه

ظواهر زخرفية في المحاريب العراقية

خالد خليل حمودي

دائرة الآثار والتراث

المحراب هو مكان محدد في جدار القبلة يتعرف المصلّي من خلاله على إتجاه القبلة . وهو على نوعين : المسطح ، والمجوف . والامثلة على وجود هذين النوعين وصلتنا من عصور مبكرة : منها إشارات في المراجع العربية ومنها أمثلة لا تزال قائمة . ولم يقتصر وجود المحراب في المسجد وانما أقيم أيضاً في المصلى الملحق بالأبنية الأخرى كالمدارس والمشاهد والقصور والدور الصغيرة . ومن المعروف أن الأبنية الاسلامية عموماً تكون متجهة في تخطيطها نحو جهة القبلة وحرص المسلمون على ذلك في مختلف العصور ، ولكن الظروف الخاصة بموقع ومكان بعض الأبنية وشكل المساحة المخصصة للبناء جعلها أحياناً تنحرف قليلاً أو كثيراً عن ذلك ، وهذا ما حمل المعمار على ترك ذلك الجزء المنحرف لتوفير مساحة منتظمة متجهة نحو القبلة ، وقد توضح لنا هذا من خلال العديد من الابنية التي وصلتنا من عصور مختلفة وأقاليم شتى من العالم الاسلامي .

إن الأنحراف في الاتجاه نحو القبلة قد يحدث في بعض الأبنية وبدرجة قليلة لكنه يعتبر شذوذاً عن القاعدة المتبعة وهو من الأمور الصعبة التي يواجهها المعمار إذا حدث في بناية مسجد أو مدرسة أو مشهد لانها أبنية عامة يؤمها عدد كبير من الناس في أوقات الصلوات وغيرها . وتجدر الأشارة الى وجود محاريب في ركن البناء أحياناً .

ومن المعروف أن معظم المحاريب وبشتى أنواعها كانت مزينة بالزخارف والكتابات القرآنية وهي ظاهرة تميزت بها المحاريب في مختلف العصور واستمرت حتى الوقت الحاضر . ولدى الأطلاع على الزخارف الموجودة في بعض المحاريب العراقية المسطحة لوحظ تنوع تلك الزخارف منها ذات أشكال هندسية وفروع نباتية مورقة وكتابات بخطوط متنوعة وأشكال مقتبسة من عناصر العمارة كالعقود المدببة والمفصصة والأعمدة وأشكال تشبه القناديل المعلقة ، لكن الذي يلفت الأنظار وجود بعض الزخارف التي تزين المحاريب المسطحة ذات أشكال لا يبدو عليها الأنسجام وهي ظواهر غريبة مثل وجود عقد مفصص غير كامل تزينه زخرفة مغايرة لما حوله ، ثم وجود مساحة مستطيلة صغيرة وسط المحراب ذات زخرفة مغايرة عن الزخارف المحيطة بها ، إن هاتين الظاهرتين لم تكن واضحة التفسير من قبل الباحثين بل أهملت أحياناً . ونظراً لأهمية هاتين الظاهرتين في معالجة الأنحراف الموجود في البناء من قبل المعمار ليكون متجهاً نحو القبلة بصورة صحيحة والتحقق من صحة ما توصلت إليه فقد آثرت نشر هذا الاستدراك ووضع هذا التحليل المنطقي والتفسير العلمي أمام الباحثين الكرام .

ونرى من الضروري هنا الكلام بايجاز عن تلك المحاريب المسطحة التي تشاهد عليها هاتين الظاهرتين . وهي :

WWW.ATTAWEEL.COM

١ ـ محراب مسطح من أحدى الدور السكنية في سامراء استظهر خلال تنقيبات سنة ١٩٣٦ ونقل من مكانه الأصلي وعرض في بناية متحف سامراء . وهذا المحراب مصنوع من الجص على شكل لوحة كبيرة مستطيلة الشكل ، يبلغ ارتفاعه (٢٣٤) سنتمتراً ، وعرضه (١٣٤) سنتمتراً ، وقوام هذا المحراب عقدان متتابعان : عقد خارجي مدبب ارتفاعه (٥٤) سنتمتراً وإتساع فتحته (٥٥) سنتمتراً وهو مرتكز على عمودين وعلى كتفيه من الخارج شكل هلال صغير . أما العقد الداخلي فهو نصف عقد مفصص ، أي يظهر منه فصان ونصف الفص ، ويمتد في طوله من أسفل قاعدة العقد المدبب المذكور آنفاً ويستقر على أرضية المحراب ، فيبلغ إرتفاعه (١٣٤) سنتمتراً . أما تاريخ هذا المحراب فيرجع الى نفس الفترة التي سكنت فيها سامراء كعاصمة للدولة العباسية (٢٢١ ـ ٢٧٩ هجرية / ٨٣٥ ـ ٨٨٩ ميلادية)[١] .

٢ ـ محراب مرقد الأمام عبدالرحمن في الموصل ويعود تاريخه الى الفترة (٥٧٦ ـ ٥٨٩ هجرية / ١١٨٠ ـ ١١٩٣ ميلادية) وهذا المحراب معروض حالياً في المتحف العراقي (رقمه ١٠٦٢٧ ـ ع) ، وهو مسلح ومصنوع من قطعة واحدة من حجر الرخام وشكله مستطيل كبير بداخله مستطيل أصغر منه ، ويصل ارتفاع المستطيل الكبير الى نحو (٢١٤) سنتمتراً وعرضه (٨٩) سنتمتراً يزينه من الأعلى شريط من كتابة كوفية نصها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، ويزدان المحراب بعقد مفصص له سبعة فصوص ملئت الفراغات على كتفيه وفي باطنه بزخارف ذات عناصر نباتية ، والعقد يرتكز على عمودين من كل جانب من جانبيه . أما المستطيل الصغير الداخلي فيحيط بثلاثة جوانب من جوانبه (الأيمن والأعلى والأيسر) شريط من كتابة كوفية قرآنية نصها سورة الأخلاص (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) مع عبارة (ما شاء الله) . ويزين المستطيل الصغير المذكور نصف عقد مفصص ثلاثي يظهر منه فقط فص ونصف الفص ، على كتفيه الأيمن الظاهر زخارف نباتية بينما زين باطن العقد بزخارف هندسية[٢] .

٣ ـ محراب جامع الجويجاتي في الموصل ويرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) ، وهو معروض الآن في المتحف العراقي (رقمه ١٢٠١ ـ ع) . وهذا المحراب مسطح الشكل يتكون من قطعة واحدة من الرخام إرتفاعه (١٧٤ سنتمتراً) وعرضه (٨٨ سنتمتراً) وقوامه مستطيلان الاول في أعلاه شريط من كتابة كوفية نصها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وفي أسفل ذلك يزدان المحراب بعقد كبير مفصص ذو خمسة فصوص تزين كتفيه وداخله زخرفة نباتية وهو يرتكز على عمودين في كل جانب من جانبيه .

ويتوسط المحراب مساحة مستطيلة كبيرة مزينة بزخارف هندسية في أعلاها بينما زينت بقية الأجزاء بزخارف نباتية ، وفي وسط هذه المساحة توجد مساحة صغيرة مستطيلة الشكل إرتفاعها (٥٠) سنتمترا وعرضها (٢٦) سنتمتراً وتتخذ شكل باب أو نافذة مفتوحة قليلاً ، وذلك بجعل الجزء الأيمن منها غائراً بمقدار (٦) سنتمترات عن مستوى سطح المحراب ، وهذه المساحة المستطيلة هي الأخرى مزينة بعقد مفصص يرتكز على عمودين صغيرين وملئت بزخارف هندسية نجمية بداخلها عناصر نباتية[٣] لذلك تظهر هي الأخرى بشكل محراب صغير لكنه منحرف قليلاً في إتجاهه نحو القبلة بسبب كون جانب منه غائر عن مستوى اللوحة التي تمثل المحراب .

الملاحظات العامة عن هذه الأمثلة من المحاريب المسطحة :

١ ـ تنوع المباني التي ظهرت فيها محاريب من هذا النوع ، فنجدها في دار سكنيّة ، وفي بناية مرقد ، وفي مسجد جامع .

٢ ـ إن هذه الظواهر الغريبة وجدت في أمثلة ترجع الى فترات زمنية متباعدة ، فقد ظهرت في محراب من القرن الثالث

الهجري (القرن التاسع الميلادي) ، وظهرت أيضاً في محرابين من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) .

٣ - تنوع المادة التي صنعت منها المحاريب التي توجد عليها هذه الظواهر الغريبة فمنها مصنوع من الجص ، ومنها من الحجر .

٤ - لوحظ إختلاف إتجاه العقد المفصص الذي يظهر نصفه الأيمن مرة ، ويظهر في مثال آخر نصفه الأيسر .

٥ - إمتازت المحاريب التي وجدت فيها هذه الظواهر عموماً برفرة الزخارف وتنوعها ودقة صنعها ومهارة نحتها حتى على حجر الرخام الى جانب العناية الفائقة برسم العقود المدببة والمفصصة .

الأستدراكات :

إن المعمار أو الفنان قد أظهر براعة وأبدع وأبتكر وقدم معالجة ناجحة برهنت على نضوج عقليته وخصب خياله الفني ووصول الفنون الزخرفية العربية الأسلامية الى تلك الدرجة من التطور التي تلاحظ في أمثلة المحاريب التي ذكرناها وتلاحظ أيضاً في أمثلة أخرى لمحاريب عديدة مماثلة لا تظهر عليها الظواهر الموجودة في المحاريب المشار إليها .

لذلك فان تفسير ظاهرة العقود المفصصة غير الكاملة بأنها تمثل نقصاً وقصوراً في تفكير الفنان[1] نراه تفسيراً غير مقبول وبعيدا عن الحقيقة ، كما إننا لا نميل الى تفسير نصف العقد أو شكل الباب المفتوحة وسط المحراب ذات طبيعة زخرفية وفنية فقط[2] . ولذلك يتطلب الأمر من الباحثين وضع تفسير علمي ومنطقي ومقنع في مثل هذه الحالات ، خاصة وان العصر العباسي الذي تعود إليه المحاريب المذكورة شهد نهضة وتقدماً وتطوراً ونضوجاً في مختلف ميادين الفنون العربية الاسلامية .

إن الدراسة العلمية والبحث والتحري عن هاتين الظاهرتين أكدت لنا آراء جديدة مغايرة أثبتت عمق تفكير المعمار أو الفنان ، إذ إنه بواسطة هاتين الظاهرتين عالج مشكلة إنحراف جدار القبلة في البناء بهذه الطريقة التي تلفت أنظار المصلين عندما يقع نظرهم على المحراب ليولوا وجوههم نحو القبلة الصحيحة ، فكانت معالجة ناجحة إستطاع المعمار من خلالها استغلال المساحة المخصصة للبناء جميعها دون ترك اجزاء منها بسبب انحراف شكل مساحة الأرض ، حيث وضع هذه الملاحظة في المحراب الذي يبحث عنه المصلون دوماً ليتجهوا نحو القبلة من صلاتهم . وهذا ما توضح لنا من خلال وجود نصف عقد مفصص تارة يمثل الجانب الأيمن من العقد المفصص وتارة أخرى يمثل الجانب الأيسر منه . كما أن شكل الباب الصغيرة المفتوحة في وسط المحراب الكبير يلاحظ إتخاذها شكل محراب صغير أيضاً رغم إختلاف زخارفها ، وقد تأكد لنا ان وجود الأنحراف في أتجاه القبلة في الأبنية التي وجدت فيها مثل هذه المحاريب مما يؤيد ويثبت ما ذهبنا إليه من تفسير لهاتين الظاهرتين الزخرفيتين .

الهوامش :

١ - نجاة يونس التوتونجي : المحاريب العراقية (بغداد / ١٩٧٦) ص ٧٤ - ٧٥ .

٢ - التوتونجي : المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٤
بشير فرنسيس وناصر النقشبندي : المحاريب القديمة في القصر العباسي ، مجلة سومر (العراق) المجلد ٧ (١٩٥١) ص ٢١٨ - ٢١٩ .

٣ - التوتونجي : المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٣٠ .
فرنسيس والنقشبندي : المصدر السابق ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

٤ - التوتونجي : المصدر السابق الصفحات ٧٥ و ١٢٤ .

٥ - التوتونجي : المصدر السابق ص ١٣٠ .
الجمعة (د . أحمد قاسم) : محاريب الموصل ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة القاهرة مطبوعة بآلة كاتبة سنة ١٩٧١ ص ٨١ .

ملاحظة :

ان الصور الفوتغرافية حصلنا عليها من دائرة الآثار والتراث ، أما الرسوم التخطيطية فقد استنسخت من كتاب السيدة نجاة يونس التوتونجي : المحاريب العراقية ، وقمنا بأجراء بعض التعديلات على تلك الرسوم التوضيحية .

محراب من احدى دور سامراء

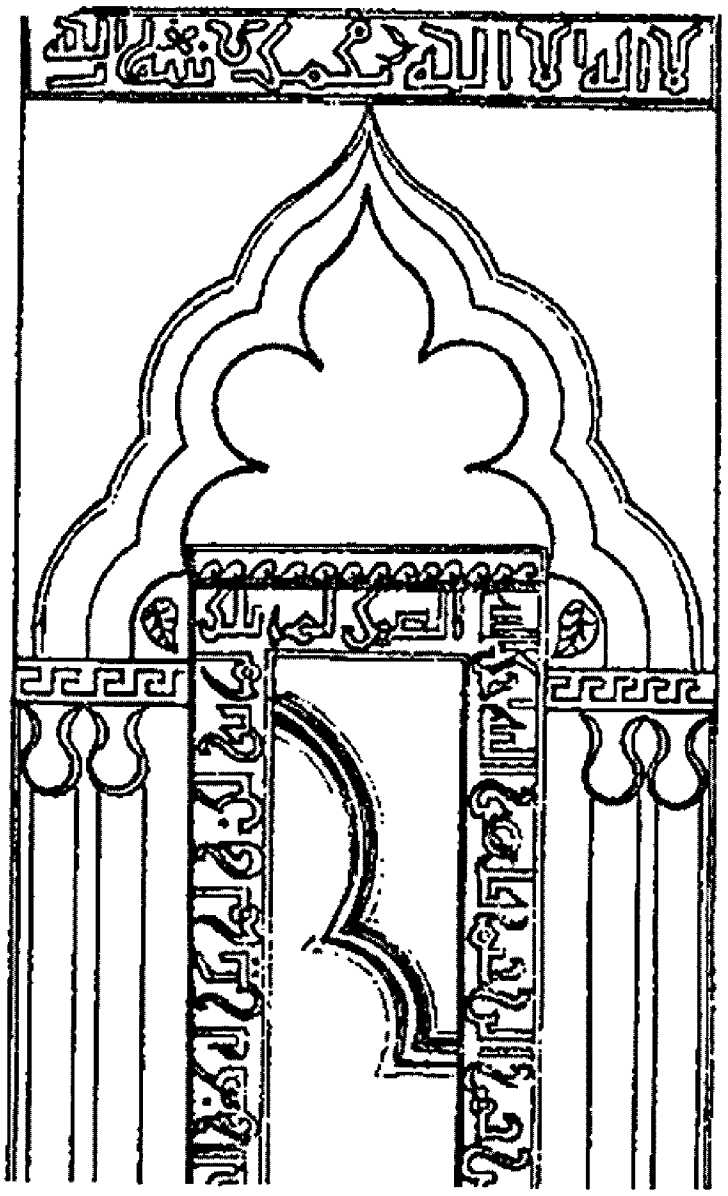

رسم تخطيطي لمحراب من احدى دور سامراء

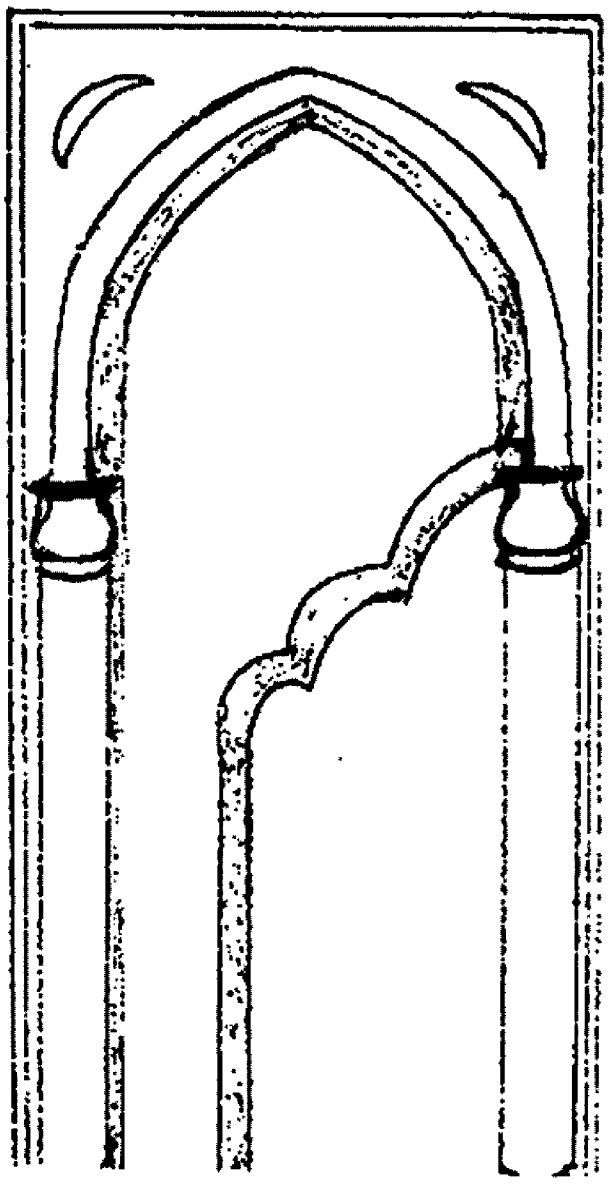

محراب مرقد الامام عبدالرحمن

محراب جامع الجويجاتي

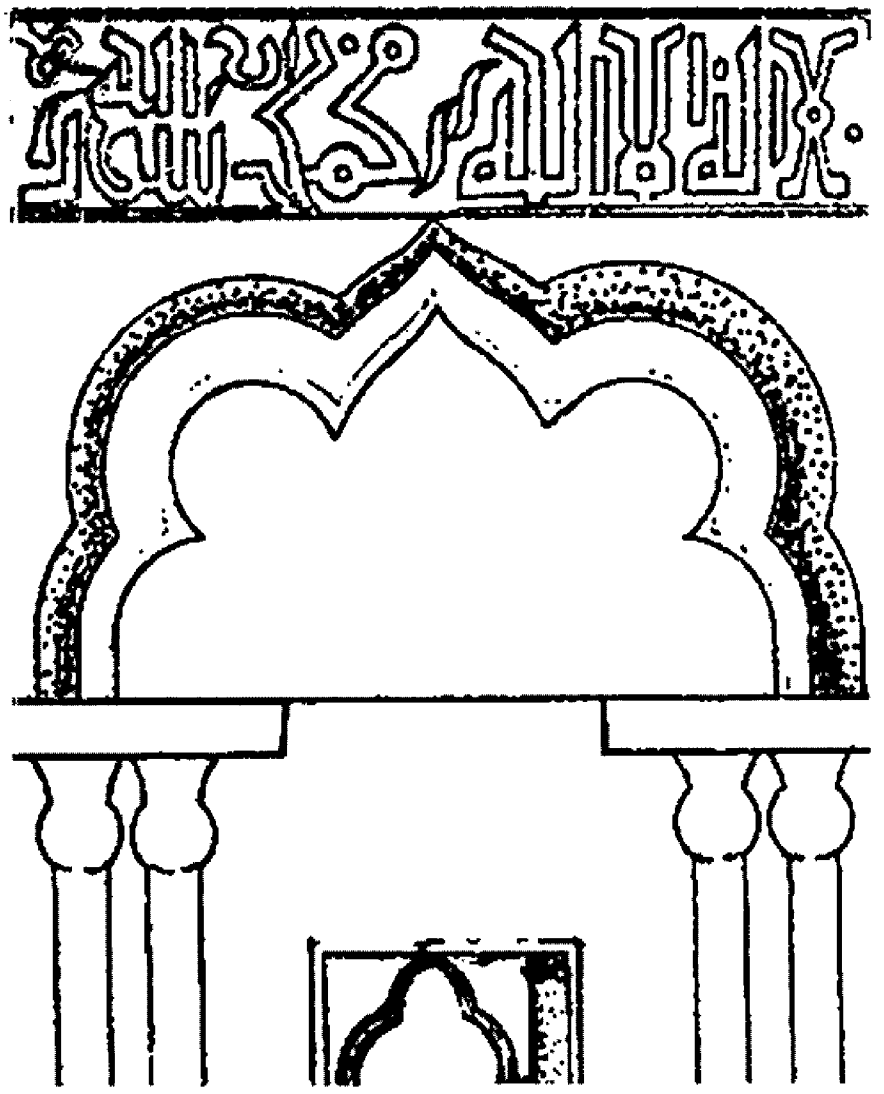

رسم تخطيطي لمحراب جامع الجويجاتي

رسم تخطيطي لمحراب الامام عبدالرحمن